

الفصل الثانى

من الطولونيين إلى الأيوبيين

شاعر خمارويه (١)

قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب : «حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة» : "رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون".

فإذا كان هذا القول قد أثرت فيه عوامل الإغراء، وشابته أسباب الهوى والمبالغة، فإنه — بالرغم من ذلك — لا يفقد دلالة على كثرة الشعراء الذين عرفوا بنظم الشعر فى العصر الطولونى.

ولكننا حين نبحث عن هؤلاء الشعراء لا نصل إلى أسماء غير مجموعة قليلة منهم لا تملأ كراسة واحدة، بل ربما لم تملأ أكثر من صفحة واحدة.

فإذا أردنا أن نتعمق قليلا، ونتعرف ما وراء هذه الأسماء، تساقط الواحد منها بعد الآخر، ولم يمثل أمامنا غير عدد ضئيل منها، ربما لم يزد على أصابع اليدين. وما نصل إليه من أخبار هذا العدد الضئيل وأشعاره يماثله ضآلة، بحيث يتعذر علينا أن نحسن تصورهم أى تصور.

وذلك هو سبب جد الباحثين فى الأدب المصرى فى التنقيب، واحتفاهم فى البحث، وفرحتهم الغامرة بالنص يعثرون عليه مهما كان قصيرا أو مبتورا

(١) نشر فى مجلة المجلة — أكتوبر ١٩٦٨ م.

أو مشوها. ف شأنه شأن النقوش الفرعونية، لا نبخل على التنقيب عنها بجهد ولا مال، ونمنحها الترحيب حين نعثر على شيء منها مهما كان، لأنه سيعطى الصورة القديمة شيئا من النماء والتمام.

هذا التصور هو الذى يدفعنى إلى الكتابة عن هذا الشاعر، الذى أريد أن أكتب عنه. فلن أعطى صورة تامة ولا واضحة له، ولن أحاول ذلك، فلست قادرا عليه بما بين يدي من مواد. وإنما أكتب لعثورى على بعض "النقوش" أعنى "القصائد"، أضعها أمام الدارسين مقرونة بتفسيرى لها ولما كنا نعرفه من شعره الذى درسه سابقون علىّ.

هذا الشاعر منحنى كتاب «المغرب فى حلى المغرب»^(١)، أتم صور اسمه، فكانت القاسم بن يحيى بن معاوية المريعى. ولا يختلف الاسم فى بقية الكتب التى ذكرته.

وضبط لقب الرجل فى أكثر الكتب التى ذكرته بفتح الميم وسكون الراء. غير زهر الآداب^(٢)، فقد ضبطه السيد على محمد الجاوى محققه بكسر الراء. وقد أردت التحقق من الضبط، وإلام ينسب الرجل، فلم أجد أحدا ممن كتب فى الأنساب والألقاب مثل السمعانى وابن الأثير والسيوطى تعرض له، ولم يبق أمامى غير التخمين. وعندما حاولت ذلك وصلت إلى أن المرجح فى الضبط هو كسر الراء، وإلى احتمالين فى تفسير اللقب:

(١) القسم الخاص بمصر من ١ : ٢٧١ .

(٢) ١ : ٤٥٤ .

١ - أن يكون منسوباً إلى مريم^(١) ، وهي من قرى حضرموت. وترجع هذا الاحتمال كثرة اليمينين والحضارمة الذين نزلوا مصر مع الفتح الإسلامي وبعده، وبروز رجالهم في الحياة المصرية في تلك العهود.

٢ - أن يكون منسوباً إلى مريمين^(٢) ، من قرى حمص أو حلب، كما ينسب إلى نصيبين فيقال نصيبى^(٣) .

ولم أجد نصاً يقطع بكون الرجل مصرياً منذ مولده إلى وفاته. ويبدو أن البحث عن مثل هذا الأمر لا طائل من ورائه. فلم يكن أهل ذلك العصر يفرقون بين الأقطار العربية خاصة والإسلامية عامة، بل كانوا يطلقون لقب المصرى وغيره من ألقاب البلدان على من أقام بمصر مدة، وعرف فيها، أين كان مولده ومنشؤه. ولذلك لا أستطيع ادعاء مصريته الشاملة اعتماداً على وصف كتاب المغرب^(٤) إياه بـ "الشاعر المريمى المصرى" أو "من شعراء مصر المشهورين" .

وقد عثرت في بعض شعر الرجل على أقوال تميل بي إلى القول بأنه شامى الأصل. فقد خرج حمارويه في سنة ٢٧٣ هـ، من مصر إلى الشام والجزيرة لمحاربة بعض خصومه، فقال المريمى يشيد بانتصاره عليهم^(٥) :

أنا نا أبو الجيش الأمير بيمينه فشرد عنا الجور، وافتر العسر
فإن تك أرض الرقتين به اكتست ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصر
فقوله : "أنا نا" يدل على أنه لم يخرج مع حمارويه من مصر، وأنه كان بالشام.

(١) القاموس المحيظ وتاج العروس : ريم .

(٢) معجم البلدان لياقوت : ٤ : ٥١٦ .

(٣) نفس المرجع : ٤ : ٧٨٧ .

(٤) نفس المرجع : ١ : ١٣٦ ، ٢٧١ .

(٥) ولاية مصر للكندى : ٢٦٠ .

كذلك أعلن في شعر آخر أن الناس يعجبون لطول مقامه بمصر، ويستألفونه
عن السبب ، قال (١) :

يقولون لي : ما بال رحلك دائما بمصر، وأنى لست عن غيرها أرضى؟
وكيف رحيلي عن بلاد غدا بها أبو الجيش والنيل الذي ملأ الأراضا؟
فهذا التساؤل من الناس إما أنه يدل على أن الرجل غريب عن مصر،
فعجبوا منه إذ أطل المقام فيها أو أنه وصل من الفن الشعري إلى مرتبة عالية تجعله
جديرا أن ينتقل من مصر إلى عاصمة الخلافة العربية بغداد، فكان مقامه في مصر
مثيرا للعجب.

أما أنا فتميل بي هذه المعلومات القليلة إلى أن الشاعر من مريمين الشامية،
وأنه اتصل بخمارويه عند ذهابه إلى الشام كما اتصل به شاعر مشهور آخر بل ربما
أشهر شعراء العربية في عصره أعنى البحترى، ثم انتقل مع حمارويه إلى مصر، وبقي
فيها ، وصار شاعرها الرسمي، فوصف بالشاعر المصري، مع احتفاظه بلقبه المريمي.
ونستبين من النصوص التي رواها الكندي أن المريمي التزم بخمارويه في
الشام، وتبع خطاه، وأهداه القصائد التي تتغنى بانتصاراته. قال يصف ما كان بينه
وبين إسحاق بن كنداج في سنة ٢٧٢هـ، وبدأ بتصوير عظمة جيش حمارويه (٢) :

فسائل به إسحاق، إذ سار نحوه بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
تباعدت الأقطار منه كثافة ففي مشرق قطر وفي مغرب قطر
وصور ما اعترى ابن كنداج من حيرة، وتملكه من فزع، وتيقنه من الهزيمة،
فما أرغمه على الفرار محافظة على النفس بعد أن تقوض جمعه، وزال فرجه :

(١) المغرب : ١ : ١٣٦ .

(٢) ولاية مصر : ٢٦٠ .

فأبلس إذ قيل: الأمير ببالس^(١)
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلا
فولى شريدا ذا ارتياح كأنه
لئن سر إسحاق النجاة بنفسه
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه
وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
أرته المنايا الحمر أعلامه الحمـر
بكل بلاد طائر ما له وكـر
لقد ساءه في جمعه القتل والأسـر
فقد كسرتة كسرة ما لها جبر

ولعل أحسن ما قال المريى من شعر كان في معارك حمارويه بالشام. فقد
التف حول الأمير جماعة من الشعراء يتغنون بشجاعته، وما أبداه من ضروب
الحنكة، ومالقيه من صنوف النصر. وكان منهم الشعراء الكبار، من أمثال البحترى
الذى قال في مدح حمارويه^(٢):

وقد رأيت جيوش النصر مزلة
يوم الشية، إذ لنى بكرته
مظفر، لم يزل يلقي بطلعتـه
على جيوش أبى الجيش بن طولونا
فى النقع حمسين ألفا أو يزيدونا
كواكب السعد والطير الميامينا

وأثار هذا الاجتماع نفوس الشعراء، وأشعل الميل إلى التبارى بينهم،
ودفعهم إلى إفراغ الجهد وسلوك كل طريق للتفوق. نجد مظاهر ذلك فى قصيدة
المريى التى قالها فيما كان بين حمارويه ومحمد بن ديوداد من معارك فى سنة
٢٧٤هـ، انتهت كسابقتها بانتصار حمارويه وفرار خصمه، وهى المعارك التى
أهملت البحترى قوله الذى أوردت أبياتا منه، قال المريى^(٣):

(١) بالس: بلدة بين حلب والرقّة .

(٢) ولاية مصر : ٢٦٣ .

(٣) ولاية مصر : ٢٦٢ .

فتوح الأمير نجوم تلوح
تسير لها في جميع البلاد
إذا حاد عن أمره حائد
وقال فيها يصف ابن ديوداد ، وما ارتكبه من غدر، وما منى به من هزيمة،
كما فعل مع ابن كنداج قبله :

نصحنا لشـرب بنـي دودد
ولم يكن الغدر مستقبحا
تعاطى نطاح كباش الحروب
لئن كان ولي سليمان صحيحا
بتحذيره لو أطيع النصيح
وفي الغدر شين وعار قبيح
فغودر وهو صريع نطيح
فما القلب منه سليم صحيح
وختم بمدح همارويه ، ووصف خلقه وعزمه :

أباح جهاه فتى لم يـزل
إذا هو لم يسترح من عدو
وإن همّ بالسـير لم يثنه
يحوط حمى ، وحمى يستيح
فليس على لذة يستريح
سنيح يعن له أو يريح^(١)

وأخذ الطولونيون أنفسهم ومن يتصلون بهم بتقاليد معينة، نقلوا كثيرا منها من التقاليد العباسية في بغداد. فقد جعلوا من الأعياد وبعض المناسبات مواسم للاحتفال وإشاعة السرور. وألقوا فيها أن يتبادلوا الهدايا: على اختلاف أصنافها، وعلى اختلاف مراتبهم. فلا فرق بين كبير وصغير في تقديم ما شاء واستطاع من هدايا واجب تقبلها.

فكان الأمير يهدى من حوله الدنانير الحديثة الضرب كما يفعل كثيرون في هذه الأيام إذ يجب أن تكون " عيديته " من الأوراق الجديدة التي لم تستعمل بعد.

(١) أي لم يثنه طير يدل على التشاؤم أو التفاؤل .

وهكذا يقال ^(١) : أهدى بعض بني طولون إلى المريعي في يوم عيد هدية فيها

دنائير جدد من ضرب السنة، فكتب إليه المريعي شعرا طويلا، يقول فيه :

لم ترض نيلا جاء يسبق موعدا
ورأيت في براللسان — وإن حلا —
فحبوتني بعيون وشى مونق
من كل ذى وجهين لم يقنع له
واشتق من لونين مشرق لونه
لا روح فيه، ومالذى روح غنى
مولى لمكرمة، وعبد مهيبه
حتى وصلت النيل منك بموعدا
مذقا إذا لم تبله بر اليهد
معه حباء من عيون العسجد
في الحسن صانعه بوجه مفرد
من أصفر في أحر متوقدا
عنه ولا صبر إذا لم يوجد
وترى له الأحرار مثل الأعبدا

وكان الشعراء يهدون الأمراء مدائحهم . ولكن بعضهم — ممن اشتدت
صلته بالأمير وقرب إلى نفسه — كان يقرئها بمدايا أخرى نفيسة . فقد أهدى المريعي
إلى حمارويه في يوم عيد مرآة، وكتب معها ^(٢) :

ولما أتى عيد عليك مبارك
ولم أرض مدحى وحده لك تحفة
بأحسن مرآة لأحسن طلعة
بعثت بأخت البدر والشمس، والتي
مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى
بجيرة نور موجها متدافع
لها نور إفرند ورونق جوهر
صفت، واستوت بالماء والنار واكتست
تقابل فيه طالع السعد لا النحس
وإن كان وشيا لا يدنس باللبس
رأيت لها فضلا على البدر والشمس
غدت طينة للمجد في صورة الأنس
ومنطقة في وصفها ألسن الخرس
وليس لها غير التألف من حس
يكدره أدنى التنفس واللمس
من اللين ثوبا وهي كامنة اليبس

(١) التحف والمدايا للخالدين ٦٤ .

(٢) التحف والمدايا : ٢٠ .

وعندما نتمعن النظر في جميع النصوص التي تحدث فيها المريمى عن الهدايا: طلبا وعطاء ، نجدها تسير على نمط واحد، إذ يعتمد فيها على أمرين: المدح والوصف. أما المدح فيوجهه للمُهدى، وأما الوصف فنخاص بالهدية، يحاول أن يعطى صورة شاملة جذابة لها. ولكن هذه الظاهرة لا تقتصر على المريمى وحده، بل تكاد تعم شعر الهدايا كله، كما يبين من كتاب التحف والهدايا.

ولكن مؤلفى الكتاب المذكور فطنا إلى ظاهرة أخرى اشترك فيها المريمى مع جماعة من الشعراء، كان رائدهم البحترى. فقد عمد هذا الشاعر إلى سد السبل جميعا أمام اعتذار من يطلب منه الهدية، وكشف له عن رضاه بجميع الأصناف منها، وأطنب في وصف صنف صنف منها. فتبعه في ذلك بعض الشعراء الذين كان المريمى واحدا منهم.

قال الخالديان^(١): استهدى البحترى من أبى جعفر بن عبد الحميد فرسا وبغلا :

فأعن على غزو العدو بمنطو	أحشاؤه طى الكتاب المدرج
إما بأشقر ساطع أغشى الوغى	منه بمثل الكوكب المتأرجج
متسربل شية طلت أعطافه	بدم فما تلقاه غير مضرج
أو أدهم صافى السواد كأنه	تحت الكمى مظهر بيرندج ^(٢)
ضرم يهيج السوط من شؤبويه	هيج الجنائب من حريق العرفج
أو أشهب يقق يضىء وراءه	متن كمتن اللجة المترجج
تخفى الحجول ولو بلغن لبانه	في أبيض متألّق كالدملج
أو أبلق يلقي العيون إذا بدا	من كل لون معجب بنمودج

(١) التحف والهدايا : ٧٨ — ٨٣ .

(٢) البرلسدج : السواد يسود به الخف ، وشؤبوب : شدة العدو ، العرفج : نبات طيب الرائحة ، اللبان : الصدر ، الدملج : السوار ، العنف : ضرب من السير سريع فسيح .



جذلان تحسده الجياد إذا مشى عنقا بأحسن حلة لم تنسج
 فالبحترى راض بالأشقر أو الأدهم أو الأشهم أو الأبلق، واصف لهما بأحسن
 الصفات . وقد حذا الصنوبرى حذو البحترى فى هذه المعانى فقال يستهدى نعلا :
 متى تدارك نعلــــــــــــــــى ألا فقد ذهبت أو بدت تذهب
 بسوداء ذات بريق تــــــــــــــــراه كالآل من فوقهــــــــــــــــا يلعب
 وإلا فصفراء كالشمس حيــــــــــــــــة من يجللها ثوبها المذهب
 وإلا فبلقاء قد وشحــــــــــــــــت بنقش كما وشح المشجب
 وإلا فدكنا عرسيــــــــــــــــة يشاكلها العنبر الأشهب
 وإلا فحمراء لون الشقيــــــــــــــــق إن كان هذا فذا أغرب
 وإلا فصهباء ما إن يــــــــــــــــزال ينافسها السوسن الأصهب
 ولو كنت أعرف خضراء قلــــــــــــــــت كالماء دبجه الطحلب

وعلى البحترى ومعانيه عول المرمى فى استهدائه التكة من ابن عبد كان :
 فابعث باحداهن لــــــــــــــــى حمراء مثل دم الغــــــــــــــــزال
 أوجد بها صفراء مــــــــــــــــة بل الشمس فى وقت الزوال
 أولا فيضاء القميــــــــــــــــة ص كأنها رقرقراق آل
 ومتى بعثت بها مــــــــــــــــور دة لعبدك لا يــــــــــــــــالى
 والخضر لون أشتــــــــــــــــهية ه وأرتضيه بكل حال
 ولئن أتت حمريــــــــــــــــة فقد اعتقدت بها وصالــــــــى
 أو فلتكن زرقاء تشبــــــــــــــــة به زرقة الماء الزلال
 وتجنب الســــــــــــــــوداء فهى تعد فى الســــــــــــــــقط الرذال
 والعيش فى منقوشــــــــــــــــة كأكف ربوات الحجال
 هبها وخذ حظــــــــى بها ألا تحل على حــــــــــــــــلال

ونلمح في شعره آثارا للصنعة الشعرية التي شاعت بين شعراء عصره. فقد اعتمد على لون ساذج من الجناس — ولكنه عذب — في بيته الذي وصف فيه أرقه وعدابه^(١) :

سهاد — حين يسرى الطيف — يسرى ودمع — حين يجرى الذكر — يجرى
واشتق من اسم البلدة التي وقعت فيها المعركة بين خمارويه وابن كنداج فعلا يتجانس معه، كما فعل في عقد الجسر أيضا ، فقال :

فأبلس إذ قيل : الأمير ببالس وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولكنه — يبدو — كان أكثر ولو عا بالطباق والمقابلة. نلاحظ ذلك في البيت السابق، وبين المشرق والمغرب من القصيدة نفسها، وبين الشطرين الأول والثاني من قوله:

لئن سر إسحاق النجاة بنفسه لقد ساءه في جمعه القتل والاسر
وقوله :

لئن كان ولي سليما صحيحا فما القلب منه سليم صحيح
وفي قوله : "يحوط حمى، وحمى يستبيح" ، وفي كثير من ألفاظ سينيته. وليس هذا بالأمر الغريب، فقد كان شعراء القرن الرابع يجبون هذه الزخرفة، منذ أولع بها أبو تمام. وكان المرمي يرى في شعره "وشيا جديرا بالأا بيتدل"، وقال:
ولم أرض مدحى وحده لك تحفة وإن كان وشيا لا يدنس باللبس
ويبدو أن المرمي وصل إلى مرتبة غير منخفضة في الفن الشعري، والصنعة، مما يجعل الناس يحافظون على قصائده ويسجلونها، وكتاب المغرب يصفه بالشهرة كلما تعرض له ، قال عنه^(٢) : " من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم " .

(١) المختار من شعر بشار للخالدين : ٢٧٠ .

(٢) ١ : ٢٧١ .

وقد أعجب التعالى بيت له فى وصف الرسائل البليغة، قال^(١) : "أحسن ما سمعته فى ذلك قول المريمى هذا :

يطوى ، وليس بمطوى محاسنه فالحسن ينشره والكبر يطويه " وإن كان فضل عليه بيتين لشاعر آخر غير ذى شهرة، قال: "وأحسن منه قول ابن مندويه الأصفهاني :

يكرر طوراً من قرأه فصوله فان نحن أتمنا قراءته عدنا
إذا ما نشرناه فكالمسك نشره ونطويه، لا طى السامة بل ضنا " وختام القول فى القاسم بن يحيى المريمى إنه الشاعر المصرى، الذى أكثر حمارويه الإحسان له، فاخص به، وأشاد بانتصاراته، وشارك فى حياة المجتمع المصرى.

وبارى الشعراء الذين اتصلوا بأمره، مهما سمى مرتبتهم. واطلع على التراث القديم والحديث. فاحتذى آخر ما ابتكره الشعراء من مسالك شعرية، واغترف من التراث العربى، وتأثر بالطبيعة المصرية، وصور بعض مشاهدتها واستلهمها كما فعل مع النيل. وطال نفسه فطالت قصائده حتى فى بعض القصائد التى لا تستحق الاطالة عادة.

فلا جرم أن يكون أهلاً بلقب " شاعر حمارويه " . ولكن شاعر حمارويه عاش طويلاً بعد أمره، فيما يبدو. فقد كتب بعض المعلقين فى حواشى مخطوط ولاية مصر أن المسبحى — المؤرخ المصرى — ذكر أن المريمى توفى فى سنة ٣١٦ هـ . وكان مقتل حمارويه فى سنة ٢٨٢ هـ . فماذا فعل الشاعر أو قال طوال هذه المدة ؟ .

(١) من غاب عنه المطرب (التحفة البهية) : ٢٣٤ .

إنه سؤال سيبقى بقاء السؤال عما كان الشاعر يفعل قبل الاتصال بخمارويه، إلى أن تقذف لنا بطون الكتب بمعلومات جديدة نضيفها إلى ما عندنا، وتزيح بعض ما يغطي جوانب حياته من ظلام، وتصعد به إلى ما تمتع به في حياته من الضياء والبروز والشهرة.

المراجع

- ١ - الثعالبي : من غاب عنه المطرب.
- ٢ - الحصرى : زهر الآداب - دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣ م.
- ٣ - الخالديان : التحف والهدايا - دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م.
- المختار من شعر بشار .
- ٤ - الزبيدي : تاج العروس .
- ٥ - بنو سعيد الأندلسي : المغرب في حلى المغرب .
- ٦ - الفيروزى بآدى - القاموس المحيط - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧١هـ / ١٩٥٢ م.
- ٧ - كثير : ديوانه - طبع الجزائر ١٩٢٨ م .
- ٨ - الكندى : ولاية مصر - دارا صادر وبيروت ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩ م.
- ٩ - محمد كامل حسين : أدبنا العربي في عصر الولاية - دار الفكر العربي ١٣٨٠هـ / ١٩٦١ م .
- ١٠ - المقرئزى : الخطط .
- ١١ - ياقوت : معجم البلدان - طبع ليسانس .

«شاعر الحكمة» (١)

هذا رجل اتفق الذين كتبوا عنه أو ذكروه من القدماء على نعته بالمصرى،
واتفق الذين كتبوا عن الأدب العربي في مصر على إهماله.

وهو رجل غريب اجتمعت فيه مجموعة من المتناقضات، لا نستطيع — على
ضوء ما عندنا من معلومات قليلة عنه — أن نجلوها، أو نعللها، أو نؤرخ لها، أو
نرفضها، فنبرز من هذا الظلام صورة واضحة القسما، جليلة المعالم، لا تختلط
بغيرها ولا يشوبها شيء من الغموض يخفى بعض جوانبها.

ولكن هدفنا أن نفوز بصورة ما، صورة قد أزلت بعض ما تراكم عليها من غبار
الزمن، وتحففت — من بعض ما يلفها من حجب الغموض، فشفت عن "رجل"
في تاريخ الأدب المصرى.

هذا الرجل الذى أستهدفه هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل.

اتفق كل من كتب عنه على ذلك. ثم زادوا في النسب أشياء وقع فيها
شيء من خلاف. فقد ذكر أكثرهم بعد إسماعيل : ابن عمر التميمى ، غير
الخصرى الذى جعله: ابن عيسى بن عمر التيمى. ولعل إهمال الأكثرين لعيسى
للاختصار لا لشيء غيره. أما التيمى فمحرفة عن التميمى التى يكاد يقع الإجماع
عليها. والدليل على ذلك قوله لابنه معاتبا وناصحا وموجها (٢):

يا من له تميم — عم نبيل وخال
إن لم يكن لك تقوى — ولم يكن لك مال

(١) نشر في مجلة المجلة — فبراير — ١٩٦٩ م.

(٢) معجم الشعراء : ٢٨٠ .



فاجلس فأنت ذليل بحيث تلقى النعال

واتفق الكتاب أيضا على أنه من مواليد رأس العين، التي أعلن أكثرهم أنها من مدن الجزيرة، أعلن ابن هداية الله الحسيني^(١) أنها من نواحي حلب. وشذ صاحب شذرات الذهب فأعلن^(٢): "أصله من رأس عين، بلدة بالجزيرة". ولكن ذلك خطأ، واعتقد أنها تحريف. فلست أعرف بين قرى الجزيرة ما يطلق عليه هذا الاسم، على حين يعرف المتصلون بالثقافة العربية رأس العين من مدن جزيرة ابن عمر، وهي الآن الحسكة على نهر الخابور في شمال سورية.

ولسنا نعرف شيئا عن مقامه بعد مولده. ولعله بقى في مسقط رأسه إلى أن دخل في سن الشباب الطموح. ورأى أن بلدته الصغيرة لا تعطيه ما يرضيه، ولا تتيح لأطماعه ما يحققها، فترح إلى بغداد. وكان المتولى أمورها وأمور العالم الإسلامي الخليفة المعز بالله الذي تقلد الخلافة من ٢٥٢ هـ إلى ٢٥٥ هـ. فحاول الرجل أن يتصل به، ويكون من شعرائه، وقدم بين يديه مدحته التي قال فيها^(٣):

ما واحد من واحد _____ أولى بمجد أو مروه
ممن أبوه وجده _____ بين الخلافة والنبوه

ولكن بغداد نبت بالرجل، إما خلع الخليفة وإعراض من بعده عنه، وإما لأنه لم يجد له مكانا بين شعراء العاصمة. فاتجه إلى الغرب. ويبدو أنه دأب على

(١) طبقات الشافعية : ١٢ .

(٢) شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(٣) المغرب : ١ : ٢٦٢ .

سيره إلى أن بلغ الرملة من مدن فلسطين، فطاب له أن يقيم بها، ففعل. ولذلك قال ابن الجوزي^(١): "سكن الرملة"، وجاءت عبارة ابن خلكان^(٢) المهمة التي نقلها عن كتاب خطط مصر لأبي عبد الله القضاعي: "أصله من رأس عين والرملة".

ولم تكن الرملة أفضل من بلدته، أو التي ترضى فيه ما لم ترضه رأس العين. فكان محتما أن يجرب الرجل حظه في أكبر مدينة مجاورة: الفسطاط، فكانت هجرته إلى مصر، التي استقر بها إلى أن انتهت حياته. فمضى كانت هجرته إلى الرملة، وكم بقى فيها، ومتى نزع منها إلى مصر؟ هذه أسئلة لا تعطينا المواد القليلة الباقية جوابا شافيا عليها، ولكننا قد نصل إلى تواريخ تقريبية لها. فلا شك أنه كان في مصر في سنة ٢٩٣هـ، فقد روى ابن حجر^(٣): "قال أبو بكر بن الحداد: دخل القاضى أبو عبيد مصر فما أعجبنى منظره. فبينما نحن عند أبي القاسم بشر بن نصر الفقيه غلام عوف، إذ دخل منصور بن إسماعيل الفقيه فقال: كنت عند القاضى. فقلت له: كيف رأيت؟ قال: يا أبا بكر، رأيت رجلا عالما بالقرآن، والحديث، والاختلاف، ووجوه المناظرة، عالما باللغة والعربية، عاقلا، ورعا متمكنا. قال: قلت له: هذا يحيى بن أكثم. قال: قلت الذى عندى فيه. قال ابن الحداد: ثم دخلت على أبي عبيد بعد ذلك وخالطته، فإذا منصور قد قصر في صفته".

فرواية الخبر تدل على وقوعه بعد مجيء القاضى أبي عبيد على بن الحسين ابن حرب المشهور بحربويه بوقت قصير. وكان دخول هذا القاضى إلى مصر يوم السبت لأربع خلون من شعبان سنة ٢٩٣هـ^(٤).

(١) التلزم : ٦ : ١٥٢ . السيوطى : حسن المحاضرة : ١ : ٢٢٥ .

(٢) الوفيات : ٢ : ١٦٣ .

(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر : ٢ : ٣٩٤ .

(٤) الكندى : قضاة مصر ٤٨١ .

أما وفاته فقد وقع فيها خلاف صغير. فقد أعلن الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في الطبقات^(١) " أنه مات قبل العشرين وثلاثمائة " ، وخلص بذلك من مأزق التحديد. ولكن غيره ذكر سنة بعينها، فانفرد "المغرب"^(٢) بأنها سنة ٣٠٤ هـ، واتفق كثيرون غيره على أنها سنة ٣٠٦ هـ.

وأقدم ما اشتغل به أبو الحسن الجندية، ثم انصرف عنها في تاريخ لا نعرفه، ولسبب لم يذكره القدماء صراحة، وربما كان ضعف بصره الذي انتهى به إلى العمى، في زمن لا ندره أيضا .

ثم اشتغل بالفقه، واتصل بتلاميذ الإمام الشافعي وتلاميذهم. أما الشافعي نفسه فلم يلقه أبو الحسن، لأنه كان قد مات في سنة ٢٠٤ هـ. فإذا وجدنا ابن النديم^(٣) يضعه بين من روى عن الشافعي، أو الصفدي يقول عنه^(٤) : " وهو من أصحاب الشافعي " فإنما يعينان أنه من الذين التزموا مذهبه ، واتبعوا أقواله ورووها.

وأوغل أبو الحسن في طلب الفقه حتى نعته كل من ذكره بالفقيه، وأعلى ابن خلكان من قدره فوصفه بأنه^(٥) : كان فقيها جليل القدر " ، وسما به السبكي إلى مرتبة عليا فجعله^(٦) أحد أئمة المذهب " .

(١) طبقات الفقهاء : ٨٨ ، ابن خلكان : الوفيات : ٢ : ١٦٣ .

(٢) ١ : ٢٦٢ .

(٣) الفهرست ٢١١ .

(٤) نكت الهميان : ٢٩٧ .

(٥) الوفيات : ٢ : ١٦٣ .

(٦) طبقات الشافعية .

ويبدو أن هذه الأقوال لا يشوبها كثير مغالاة ، فقد انفرد الرجل بآراء خاصة به في المذهب الشافعي. قال ابن العماد^(١) : "نقل عنه الرافعي في الجنائيات أن مستحق القصاص يجوز له استيفاؤه بغير إذن الإمام".

ومن أجل بعض الآراء الفقهية اختلف مع واحد من أعز أصدقائه، وهو قاضي الفسطاط، وكان ذلك سببا في قطيعة حاسمة بينهما.

ووجد أبو الحسن من نفسه القدرة على تأليف بعض الكتب التي تكشف عن آراء الإمام الشافعي في الجوانب المختلفة من الأمور الفقهية . ذكر لنا منها المؤرخون الهداية، والواجب، والمستعمل، وكتابا رابعا سماه بعضهم^(٢) "المسافر" وبعضهم الآخر^(٣) "زاد المسافر" وهو الاسم المرجح. ثم أجلوا فقالوا : " وغيرها من الكتب"^(٤) . ونعت مؤرخو الفقهاء هذه الكتب بالحسن والملاحه^(٥) ، غير أنها كانت مختصرات^(٦) .

(١) شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية . الشيرازي : طبقات الفقهاء ٨٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ . الصفدي : نكت الهميان : ٢٩٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ٢١١ ، ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٥ .

(٤) السبكي " طبقات الشافعية . الشيرازي : طبقات الفقهاء ٨٨ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(٥) السبكي : طبقات الشافعية . الشيرازي : طبقات الفقهاء ٨٨ . ابن هداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ . الصفدي : نكت الهميان : ٢٩٧ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم : ٦ : ١٥٢ .

وقد دفعته مكانته هذه إلى أن يدافع عن الفقه أمام الذين عابوه (١) :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم وما عليه — إذا عابوه — من ضرر
ماضر شمس الضحى، والشمس طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر
وبالرغم من هذا الدفاع العنيف، هاجم هو نفسه الفقه حين لم يفز بطائل
من ورائه، ووجد أن فتاواه لم تعد عليه بما يقوم ببعيشته، وأن عليه أن يكدح في
سبيل اللقمة (٢) . قال:

ليس هذا زمان قولك: ما الحكم — م على من يقول : أنت حرام
والحقى باننا بأهلك، أو أنى — ست عتيق محرر يا غلام
أو متى تنكح المصابة فى العذ — دة عن شبهة ؟ وكيف الكلام
فى حرام أصاب سن غزال — فتولى وللغزال بغلام؟
إنما ذا زمان كدح إلى المو — ت وقوت مبلغ ، والسلام

والحق إن أبا الحسن — فيما يبدو — واجه أيا ما صعابا فى الفسطاط، وعدم
القوت حتى كاد يخرج عن صوابه. وحكى بعض من ترجم له خبرا أقرب إلى
السنادة والفكاهة، قال (٣) : "أصابته فاقة فى سنة قحط، فنادى بأعلى صوته فوق
داره:

الغيث ، الغيـث ، يا أحرار — نحن خلدجانكم وأنتم بحرار
إنما تحسن المواسة فى الشد — دة لا حين ترخص الأسعار
فسمعه جيرانه ، فأصبح على بابـه مئة حمل بـر" .

(١) الصفدى : نكت الهميان : ٢٩٧ . السبكى : طبقات الشافعية .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٧ . السبكى : طبقات الشافعية .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .



ويكشف شعره عن صلاحه ببعض الرجال، الذين كان بعضهم خصوما،
وبعضهم أصدقاء. فقد ذكر المرزباني أن الناشئ الأكبر هجا منصورا ،
فأجابه بقوله (١) :

إن ذكر السياق — أصلحك الله — وذكر المبيت في اللحد وحدي
هيناني عند الحديث بما لـ ذاع لم تشتغل بلدي وحمدي
فاهجني باطلا فمالك عندي أبدا غير ما لغيرك عندي

ولما كان أبو العباس عبد الله بن محمد المكنى ابن شرشير والملقب بالناشئ
الأكبر قد عاش في بغداد والفسطاط، يمكن أن تكون هذه الخصومة بين الرجلين قد
نشبت في إحدى المدينتين . ولعل المرجح أن تكون في بغداد، حيث اشتبك الناشئ
في عداوات عدة بسبب ما ألفه من كتب في نقض منطق أرسطو، وإسقاط علل
السنحة ، ونقد الشعراء. فاستعدى كثيرا من الناس عليه فجعلوا يثلبونه وينتقصونه
ويرمونته بالتهويس، ويعملون ما في وسعهم لاسقاطه حتى بلغوا ما أرادوا، واضطر
الرجل إلى اللجوء إلى مصر. ومهما يكن من شيء ، فهذا الشعر قيل قبل سنة
٢٩٣ هـ، التي توفى فيها الناشئ الأكبر.

وعلى العكس من ذلك ، كانت علاقة أبي الحسن بالشاعر يموت بن المزرع
البصري، ابن أخت الجاحظ، فقد كانا صديقين. ولكن تتكرر ظاهرة قضاء الرجلين
مدة من حياتهما في بغداد والفسطاط، فلا نستطيع أن نقطع أين كان اللقاء بينهما.

(١) معجم الشعراء : ٢٨٠ .

أما إذا كان يموت لم يذهب إلى بغداد قبل سنة ٣٠١هـ، فإن المرجح أن يكون لقاؤهما قد وقع في القسطنطينية. وتوثقت الصلة بينهما حتى قال أبو الحسن (١):

أنت يجيى والذى يكىى
— — — — —
أنت صنو النفس بـل أن
— — — — —
أنت للحكمة بيت
— — — — —
أنت تحيا يموت
— — — — —
أنت لروح النفس قوت
— — — — —
أنت لخلت منك البيوت
— — — — —

والمؤكد في هذا الشعر أيضا أن أبا الحسن نظمه قبل سنة ٣٠٤ هـ، التي مات فيها.

ويكشف شعر أبي الحسن عن خصومة أخرى كانت بينه وبين من يسمى الفتح فقد قال (٢):

تضيق به الدنيا فينهض هارباً
— — — — —
فإن قيل: من هذا الشقى؟ أقل لهم
— — — — —
فإذا كان المعنى الفتح بن خاقان وزير المتوكل، الذى قتل معه في سنة ٢٤٧هـ، كان هذا الشعر من نظم بغداد، ومن أقدم ما نعرف من شعر الرجل.

ومن صلاته المجهولة أيضا ما كان بينه وبين أحد الأشراف، وكانت أم الرجل أمة قيمتها ثمانية عشر دينارا. فقد أتى بابه فحجبه خادم له، فقال فيه (٣):

إذا وقع الضرير على خصى
— — — — —
فعب عليه الشريف، فهجاه منصور بقوله:

من فاتنى بأبيىه
— — — — —
ورام شتمى ظلمى
— — — — —
ولم يفتنى بأمىه
— — — — —
سكت عن نصف شتمىه
— — — — —

(١) ياقوت: معجم الأدباء: ٧: ١٨٦.

(٢) الحصري: زهر الآداب: ١٠٣٠. جمع الجواهر: ١٢١.

(٣) الحصري: جمع الجواهر: ١٢١ - ١٢٢.

فدفع إليه مئة دينار . وقال : اسكت عن الجميع .

والصلة الوحيدة التي لدينا بعض المعلومات عنها هي صلته بالقاضى أبى عبيد حربويه. فقد أعجب أبو الحسن منصور بالقاضى إعجابا شديدا، شاهدنا أثرا له فيما مضى.

ويادل القاضى أبا الحسن إعجابا بإعجاب، وودا بود، فقربه إليه، وأنزله منزلة خاصة. قال ابن خلكان^(١) : " كان لأبى عبيد فى كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم. ويخلو به، خلا عشية الجمعة فإنه كان يخلو بنفسه فيها. فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور، وعشية يخلو فيها بأبى جعفر الطحاوى (أحمد بن محمد بن محمد بن سلامة)، وعشية يخلو فيها بمحمد بن الربيع الجيزى، وعشية يخلو فيها بعفان بن سليمان، وعشية يخلو فيها بالسجستانى وعشية يخلو فيها للنظر مع الفقهاء".

ولكن هذه المودة آلت إلى كارثة لم يتوقعها أحد، بسبب خلاف فى الرأى نشب بين الرجلين فى مناقشة هما، ولم يحسنا معالجته، بل تفاقم الأمر فيه عليهما واستشرى حتى كاد يودى إلى مقتل أبى الحسن، وإلى فتنه بالفسطاط. تقول بقية الكلام الذى ذكرته : " فجرى بينه وبين منصور فى بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثا ووجوب نفقتها. فقال أبو عبيد: زعم قوم أن لا نفقة لها فى الثلاث، وأن نفقتها فى الطلاق غير الثلاث. فأنكر ذلك منصور وقال: قائل هذا ليس من أهل القبلة".

ثم انصرف منصور فحدث بذلك أبا جعفر الطحاوى. فحكاه أبو جعفر لأبى عبيد فأنكره. وبلغ ذلك منصور فقال : أنا أكذبه .

(١) الوفيات : ٢ : ١٦٣ . السبكى : طبقات الشافعية .

واجتمع الناس عند القاضى وتواعدوا لحضور ذلك. فلما حضروا لم يتكلم أحد. فابتدأ أبو عبيد وقال : ما أريد أحدا يدخل على ، ما أريد منصورا ولا نصارا ولا منتصرا، قوم عميت قلوبهم كما عميت أبصارهم، يحكون عنا ما لم نقله. فقال له منصور : قد علم الله أنك قلت. فقال : كذبت . فقال: قد علم الله الكاذب . ونهض فما جسر أحد من هيئة القاضى أن يأخذ بيده إلا أبا بكر بن الحداد . . . فشكر له هذا الصنيع ، وقال له : أحسن الله جزاءك، وشكر فعلك، وأخذ بيدك يوم فافتك إليه.

ولم يقف الأمر عند هذا بل تدخل فيه دعاة الخير والسوء من أصدقاء الطرفين وخصوصهما بغية إزالة الخلاف أو احتداده، استطرد الخبر يقول : " ثم إن ابن الحداد أشار عليه بالرجوع إلى القاضى والاعتذار، فرجع فلم يمكنه الحاجب من الدخول إليه، ودفع في ظهره ، وقال: لا سبيل لك إلى هذا، ثم تعصب لمنصور خلق كثيرون كانوا يعتقدونه (على رأسهم) ذكا والى مصر من ٣٠٣ هـ إلى ٣٠٧ هـ، وجماعة من الجند، وتعصب للقاضى جماعة منهم محمد بن الربيع الجيزى .

وسمع محمد بن الربيع منصورا يقول مقالة يحكيها عن النظام (أحد رؤوس المعتزلة) فنسبها إلى منصور وشهد عليه بما عند القاضى فهلع منصور، وبلغه أن القاضى قال: إن شهد عندى شاهد آخر مثل محمد بن الربيع ضربت عنق منصور". ويدور هذا الخبر بهذه الصورة عند جميع من ترجم لمنصور. ولكن بعض تفاصيله غير صحيحة ، فأبو محمد الربيع بن سليمان الجيزى، صاحب الإمام الشافعى، لم يش بأبى الحسن، ولم يتقرب إلى القاضى أبى عبيد، ولم يكن له دور فى القضية، بل لم يكن له واحدة من عشايا القاضى، لأنه لم يجتمع به فى الفسطاظ ولم يره. فلم يقدم القاضى إلى المدينة المصرية إلا بعد وفاة الجيزى بأكثر من عشرين

سنة على قول من قلل وقريب من أربعين سنة على قول من كثر، لأن وفاته كانت سنة ٢٧٠هـ، أو ٢٥٦هـ.

وعندما وقعت الفرقة بين الرجلين لزم أبو الحسن منصور منزله وجامع أحمد ابن طولون، الذي كان يأتي إليه كل يوم فلا يخرج منه إلى المساء، وهو محزون مغموم، ثم سقط مريضا، فكان يمئى النفس أن يعود القاضى. فلما لم يفعل اعتقد أن هذا شامة منه . فقال (١) :

قضيت لحى فسر قـوم حقى ، هم غفلة ونـوم
كان يومى على حـتم وليس للشامتين يـوم
فبلغ ذلك القاضى أبا عبيد فاطرق ساعة ينكت بيده الأرض ثم قال :

تموت قبلى ولو بيـوم ونحن يوم النـشور تـوم
فقد فرحنا وقد سررنا وليس للشامتين لـوم

وفى أحد أيام جمادى الأولى ودع الرجل دنيانا، دون أن يلتقى بخصمه ، فهاجت المشاعر التى كادت تهدأ، وقال أبو بكر بن الحداد من أصدقاء الرجل: "لوشنت لقلت: إن دية منصور على عاقلة القاضى — يريد أن أبا عبيد قاتله خطأ — فإن منصورا بلغت منه نكاية أبى عبيد حتى جاءت على نفسه".

وبلغت القاضى وفاة منصور، فأسف على ما جرى منه، وعزم أن يتلافى بعض ما فاتته بالصلاة عليه . فسمع أن جماعة كبيرة من الجند حملت السلاح وقيأت لقتله إن هو برز للصلاة. فأحجم ، وكان ذلك سببا لتأخير الجنازة. ثم حضر الصلاة الأمير ذكا، وصاحب الخراج أحمد بن محمد بن بسطام، وخرجت الجنازة وحولها

(١) السبكى : طبقات الشافعية : ويعقب على الخبر كله بما يدل على شيء من الشك، يقول: "والله أعلم بصحة ذلك". ابن خلكان : الوفيات : ٢ : ١٦٣ . يافـوت : معجم الأدباء : ١٨٩/٧ .

متنا سيف، وآلاف من السكاكين، وأظهر الناس فيها سب القاضى وقذفه. وشارك
الشعراء الناس فى الاحتفال بالميت، فرثاه منهم الحسن بن على الزيدى،
وأبو إبراهيم الحسين بن إبراهيم الرسى، وأبو بكر بن الحداد^(١).

وأورد لنا ابن الجوزى أطول وصف لأبى الحسن منصور، حين قال^(٢): " كان
أديبا فهما عاقلا حاد المناظرة " .

وذكر السبكى ما يدل على أنه كان على شىء من اليسار ، وعدم الخضوع لما
أصيب به فى عينيه، إذ قال^(٣): " وربما كان يركب حمرا فارها " .
ويؤكد شعره هذا، فقد قال لما حلت به ملامته وجفاه الإخوان والرفقاء^(٤) :

من قال: مات ولم يستوف مدته	لعظم نازلة نالته معذور
وليس فى الحكم أن يحيا فتى بلغت	به نهاية ما يخشى المقادير
فقل له غير مرتاب بغفلته	أو سوء مذهبه : قد عاش منصور

ويعطينا شعر أبى الحسن مجموعة من الصفات الخلقية والفكرية التى تحلى بها ،
أو استشرف إليها ، أو تخيلها مثلا عليا، فهو قانع بما كتبه الله عليه، لا يرى فيما
سلف من عمره إلا الخير، ويؤمن أنه لن يرى فيما يأتى غير الخير والفضل^(٥).

(١) المغرب : ٢٦٣ .

(٢) التنظيم : ٦ : ١٥٢ .

(٣) طبقات الشافعية .

(٤) الحصرى : زهر الآداب : ٨٢٦ ، جمع الجواهر : ١٢١ .

(٥) الحصرى : زهر الآداب : ٨٢٧ .

رضيت بما قسم الله لى
كما أحسن الله فيما مضى
وفوضت أمرى على خالقي
كذلك يحسن فيما بقى

فهو لا يطلب من دهره غير القوت والصحة والطمأنينة^(١) :

إذا القوت هيمًا لك
وأصبحت أخا حزن
والصحة والأمن
فلا فارقك الحزن

ويعجب أن يطمع الناس فيما وراء ذلك، فيرغمهم هذا الطمع على التنازل
عن النفيس من خلقهم وشرفهم عند أناس حمقى متعجرفين لم يرفعهم غير منصبهم
وما لهم^(٢) :

من كفاه من مساعيه
وله بيت يواريه
فعلام يبذل الوج
وعلام يبذل العر
به رغيه يفتديه
به وثوب يكتسيه
به لدى كبر وتيه
ض لمخلوق سفيه

وما كل هذا الذى يتناحر الناس من أجله إلا عَرَضُ زائل ، دال على تفاهة
الراغبين فيه، فما يرغب فى الحقير إلا مثله^(٣) :

منافسة الفقى فيما يزول
ومختار القليل أقل منه
على نقصان همته دليل
وكل فوائد الدنيا قليل

(١) النعالى : برد الأكبـاد : ١٢٤ .

(٢) ياقوت : معجم الأدياء : ٧ : ١٨٨ . السبكى : طبقات الشافعية .

(٣) ابن أبى الحديد : شرح لهج البلاغة : ١ : ٣١٦ .

فإن كان لا بد من الطمع فليسلك المرء الطريق الطبيعي لتحقيق ما يطمع فيه، الطريق الذى يكسبه الشرف والمجد، فإن نال الذى حارب من أجله كان ذلك الذى بغاه، وإن مات دونه تتره أن يكون لنذل منة عليه^(١):

الموت أسهل عنــــدى	بين القنا والأســــنه
والخيل تجرى سراعــــا	مقطعات الأ عنــــه
من أن يكون لنــــذل	على فضــــل ومنه

ومهما يكن من أمر، فلا بد من القصد فى الطمع، والاكتفاء بما يدركه المرء كائنا ما كان، ففي ذلك طول العمر^(٢):

كن بما أوتيته مغتبطــــا	تستدم عمر القنوع المكتفى
إن فى نيل المنى وشك الردى	وقياس القصد عند السرف
كسراج دهنه قوتــــه	فإذا غرقته فيه طفــــى

وخصلة أخرى تتصل بالزهد بسبب قريب، حث عليها منصور، وإن كانت شواهد حياته تدل على أنه لم يلتزمها، تلك هى العزلة. فقد رأى أنها الوسيلة الوحيدة التى تنقذ المرء من شرور الناس الذين يختلط بهم^(٣):

الناس بحر عميــــق	والبعد عنهم ســــفينه
وقد نصحتك ، فانظــــر	لنفسك المسكــــينه

(١) ابن أبى الحديد : شرح فـج البلاغة : ٣ : ١٦٣ .

(٢) الصفدى : نكت الهميان : ٢٩٧ .

(٣) الثعالبي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ ، منتخبات التمثيل والمحاضرة : ١١ . السبكي : طبقات الشافعية.

فإن بليت بالخروج من العزلة، والالتقاء بالناس، والحديث معهم، فلا تكثر
ولا تطل، فخير الكلام — عنده كما كان عند المجتمع العربي عامة —
ما قل ودل^(١) :

لا تكثرن فخير الكلام قليل الحروف كثير المعانى
وتجنب في حديثك أن تدعى ما ليس فيك، فتلك رذيلة شنعاء، ومصيبة
صماء^(٢) :

ومن البلوى التي لى — س لها في الناس كنىه
أن من يحسن شيئاً — يدعى أكثر منه

والشاعر يكره الكذب كراهية خاصة، والكذب عنده شر من الوشاية.
فربما استطاع المرء أن يدفع الوشاية، أما الكذب فلا سبيل إلى دحضه وفضحه^(٣) :

لى حيلة فيمن ينىم (م) وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فىه قليله

وعاب الكبرياء ، فالمصدر الذى تخلق فيه الإنسان، والمال الذى يدفن فيه،
ينكران عليه عجزته، قال^(٤) :

تبه وجسمك من نطفة — وأنت وعاء لما تعلم !

(١) الطوط : غرر الخصال : ١٧٧ .

(٢) النعالى : منتخبات التمثيل والمحاضرة : ١٦ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية . ابن هداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ . ابن تفرى بردى :

النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(٤) العاملى : المخلاة : ٤٣ .

وقال^(١) :

يا جيفا من الجيف مالكم و للصلف ؟
وذم خلف الوعد ، وعدم التمسك بما يقوله الإنسان ، وعده من الظلم
البين^(٢) :

من قال : لا ، في حاجة مطلوبية ، فما ظلم
وإنما الظالم مــــن يقول : لا ، بعد نعم

وشنع بالحسد، وجعله من الكبار، لأنه اعترض على ما قضت به القدرة
الإلهية وتحدها^(٣) :

ألا قل لمن كان لي حاسدا أتدرى على من أسأت الأدب ؟
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترض لي ما وهب

وطبيعي أن يمر إنسان مثل منصور تنقل بين العراق والشام ومصر، واتصل
بالخلفاء والولاة والقضاة والشعراء والعلماء والأعيان، أن يمر مثل هذا الإنسان
بمجموعة كبيرة ومتعددة من التجارب. وطبيعي أن يستخرج إنسان مثل منصور
شارك العلماء علمهم، والشعراء فنههم، والناس حياتهم، وتحلى بما ذكر ابن الجوزي
من صفات، أن يستخرج مثل هذا الإنسان من هذه التجارب دلالاتها، ويستمد
منها نظرات تكون هادية له في معيشته وتفكيره. وطبيعي أيضا أن يؤثر ما أصيب به
منصور في عينيه في نظراته، ويصبغ هذه الدلالات بألوان حزينة ، ويلتفت إلى

(١) نفس المرجع . العلوان : قطر العيث المسجم : ٥٠ .

(٢) التعالي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(٣) الخليلي : مختصر الدر المنكون .

الجانب الأسود قبل الأبيض، ويكون أقرب إلى التشاؤم والسخط منه إلى التفاؤل والرضى . . . وقد كان ذلك كله . فقد كان يرى الأيام جادة لا تعرف الهزل^(١) :

تغابن الأيام تقديراً وأخذها جد وتشمير
وأما لا تأتي إلا بالسوء، ولا تفعل غير إهلاك الأحياء^(٢) :

ماذا أرتنا الليلى إلى ماذا أتيت إلينى
فى كل يوم نعى نعى فىمن يعزُّ علينا

وأن الناس أبناء دهرهم، لا يمتازون عنه فى شىء. بل هم أشد إثارة للمخاوف من الدهر، وأعظم شراً^(٣):

لو قيل لى : خذ أماننا من حادث الأزمـان
لما أخذت أماننا إلا من الإخوان
فالرياء فاش فىهم جميعاً^(٤) :

كل من أصبح فى دهرك ممن قد تراه
هو فى خلفك مقراض وفى وجهك ماه

ولا يذكرون إلا من يرونه أمامهم، فإن اختفى عن عيونهم نسوه كأن لم يعش بينهم، مهما كانت درجته^(٥) :

كل مذكور من الناس إذا ما فقده
صار فى حكم حديث حفظوه فنسوه

(١) السبكى : طبقات الشافعية .

(٢) النعالى : الإيجاز والإعجاز : ٦٧ .

(٣) الحصرى : زهر الآداب : ٨٢٧ .

(٤) النعالى : الإيجاز والإعجاز : ٦٧ .

(٥) نفس المرجع : ٦٦ . ياقوت : معجم الأدياء : ٧ : ١٨٨ .

وقد أولعوا بالأغنياء : فإما ينالون من ما لهم وإما من عرضهم^(١) :

أبى الناس أن يدعوا موســــرا سليم الأدم سليم النسب
وقد خبروك، فإن لم تطب بعرضك نفسا، فطب بالذهب

ولكن لا تتمنّ الغنى لأحد ممن تعرف، وإلا كنت تتمنى لعلاقتكما
الانفصام، لأن الغنى لا بد أن يطره ويغيره^(٢) :

إذا ما رأيت امراء في حال عسرته بادى الصداقة ما في وده دغل
فلا تمنّ له حالا يسرّ بهــــا فإنه بانتقال الحال ينتقل

وإذن لن تحسر شيئا إن ابتعدت عنهم، وبرنت من صحبتهم، فإن لم تستطع
واضطرت إلى مخالطتهم فلن تفقد شيئا إن عدمت رؤيتهم^(٣) :

قالوا : العمى منظر قبيــــح قلت : بفقدى لكم يهــــون
تالله ما في الأنام شــــيء تأسى على فقده العيــــون

بل لن تفقد شيئا إن عدمت الحياة معهم، والموت خير من تلك الحياة، التي
تتلى بالظالمين، لأنه يخلص المرء منهم ومن مخاوفه جميعا حتى خوفه من لقاء الموت
نفسه^(٤) :

قد قلت، إذ وصفوا الحياة فأسرفوا: في الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائــــه وفراق كل معاشر لا ينصف

(١) الخصرى : جمع الجواهر : ١٢١ .

(٢) الوطواط : غرر الخصائص : ٤٦٩ . ياقوت : معجم الأدهاء : ٧ : ١٨٧ .

(٣) ابن الوزير : عنوان المرقصات ٥٩ .

(٤) أسامة : البديع : ٢٣٩ . النعماني : الإيجاز والإعجاز ٦٧ . السبكي : طبقات الشافعية .

ونالت الصداقة نصيبا ملحوظا من شعر منصور، ربما ظهرت له آثار فيما مضى من قول، وتتجلى بقية الآثار فيما بقى من شعر. وقد أعجب بعض الأدباء بما قاله منصور عن حاجة الإنسان إلى صديق، تلك الحاجة التي يشعر بها من كان مثل منصور أكثر من شعور غيره ممن سلم بصره. قال رشيد الدين الوطواط^(١): "لم يقل في احتياج الإنسان إلى صديق يزينه في المشاهد، ويعينه على بلوغ المقاصد، مثل قول الفقيه منصور:

لولا صدود الصديق عني ما نال واشٍ مناه مـني
ولا أدمت البكاء حـتي قرّح فيض الدموع جفـني
وما جفء الصديق إلا هجوم خوف عقيب أمـن
وأعلن أن الصداقة ما وقر في القلب من ود، وأنها لا سبيل إلى إثبات صدقها إلا ما يحس به قلب الصديق الآخر، فالصداقة . . . إن صدقت . . . كانت من الطرفين لا محالة، وإن قلب الصديق أقدر الأشياء على التعرف على قدر صداقة الصديق^(٢):

شاهد ما في مضمـرى من صدق ود ، مضمـرك
فان أردت وصفـه قلبك عني يخـبرك
أما الود المصطنع فيمكن أن تجد الشواهد التي تدل عليه^(٣):

إذا تخلفت عن صديق ولم يعاتبك في التخلف
فلا تعد بعدها إليه فأما وده تكلـف
ولذلك لم يكن يجهل صديقه أكثر من أيام معدودات، فإن زاد عليها ساءله وعاتبه^(٤):

(١) غرر الحصائص : ٤٢٢ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٧ .

(٢) النعالي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ومنتخبات التمثيل والمحاضرة : ١١ .

(٤) النعالي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٨ .

منذ ثلاث لم نـ_____رك
أعلة ، فنعـ_____لذك
فقل لنا : ما أخصـ_____رك؟
أم دهـر سوء غـ_____يرك ؟
وكان من أجهل ما نظم من شعر ثناؤه على صديق له (١) :

أخ لي عنـ_____ده أدب
مودة مثله نـ_____سب
رعى لي فوق ما يرعـ_____ى
وأوجب فوق ما يجـ_____ب
فلو سُبكت خلائقـ_____ه
لُبهرج عندها الذهب

ويدل ما بقى من شعر منصور على أنه شارك في بعض القضايا التي شغل بها مجتمعه. وأهم قضية تردد ذكرها عنده التنجيم. فقد كان أمرا شائعا يؤمن به الخاص والعام، ويتحراه الناس في كثير من أعمالهم. ولكن منصورا هاجمه هجوما عنيفا متكررا. فقد أعلن أن النجوم لا تضر ولا تنفع، وإنما هي علامات تدل على الوقت (٢) :

ليس للنجم إلى ضـ_____ر (م) ولا نفع سيـ_____ل
إنما النجمـ_____م على الأرو
وتبرأ ممن يؤمن بأن للنجوم ضرا أو نفعاً . مهما كانت قرابته له (٣) :
من كان يخشى زحـ_____لا أو كان يرجو المشـ_____تري
فإننى منـ_____ه — وإن كان أبي الأدنى — بـ_____رى
لأنه عد ذلك لونا من الإِشراك بالله (٣) :

إذا كنت تزعم أن النجمـ_____وم تضر وتنفع من تحتـ_____ها
فلا تتكرن على من يقـ_____ول : بأنك بالله أشركتـ_____ها

(١) الثعالبي : من غاب عنه المطرب : ٢٨٧ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية . ياقوت : معجم الأديباء ٧ : ١٨٧ .

(٣) ياقوت : معجم الأديباء : ٧ : ١٨٦ . السبكي : طبقات الشافعية .

وعبر عما كان مجتمعه — ولازال مجتمعنا العربي — يتمسك به، من أن أصل الإنسان مؤثر فيه، مسيطر عليه، فإذا أردت أن تعرف جوهر إنسان فلا تسأل عنه وإنما عن آبائه (١) :

قال : فلان ما فعل _____ ؟ قلت : أبوه ما فعل _____ ؟
فكـ _____ ان في سـ _____ انه جوابه عما سـ _____

وصرح برأين شخصين له ، ذهب في أحدهما إلى أن المناصب العليا لها أوقات معينة تصلح لها، فإن نال امرؤ واحدا منها أو حاول ذلك قبل أوانه كان وبالاً عليه وعلى الناس (٢) :

الكلب أحسن عشـ _____ وهو النهاية في الخساسة
من يـ _____ في الريـ _____
سـ _____ قبل أوقات الرياسة
وذهب في الثاني إلى أن العلم والعمل يجب أن يجتمعا في المرء ليكون دينا
فاضلا . فالعلم بالدين غير نافع دون مواظبة على أوامره، وتجنب لنواهيه (٣) :
لو كنت منتفعا بـ _____ لك مع مواصلة الكبائر
ما ضر شرب السم واعد _____ لم أن شرب السم ضائر

ولم يكن كل شعر منصور من هذا اللون، الذي يصور خلق صاحبه، ويمثل أفكاره، ويرز مثله، فيجلو شخصه إزاء المجتمع الذي عاش فيه. فقد انغمس منصور فيما انغمس فيه مجتمعه، وشغل بما شغل به شعراؤه. فطبيعي أن يشاركهم نواحي

(١) التعالبي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(٢) ابن هـداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ . السبكي : طبقات الشافعية . العماد :

شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(٣) الحصرى : زهر الآداب ٨٢٧ .

فَنهم ، ويذهب مذاهبهم، فينظم في الأغراض التقليدية التي ألفوها. ولكن الشعر
الذي وصل إلينا من هذه الأغراض قليل . مما يدل على أن من رَووا شعره فضلوا
ما نظمه في الأمور السابقة على ما قاله في الأغراض التقليدية.

وأقل ما في هذا القليل ما كان في الغزل. فلا نمتلك منه غير مقطوعتين ليس
فيهما ما يستحق الملاحظة في فكرة أو صورة أو عبارة، فالأفكار فيهما عادية
وشائعة، والعبارة لا تمتاز بشيء، قال في أولهما يخاطب حبيبته التي سماها خلوبا^(١) :

قد قلت ، لما أن شـُـكت تركي زيارتها خلـُـوب
إن التباعد لا يضر إذا تقاربت القلـُـوب
وقال في الثانية^(٢) :

سرت بهجرك لما علمت بأن لقلبك فيه سرورا
ولولا سرورك ما سررتني وما كنت يوما عليه صبورا
لأنى أرى كل ماساءني — إذا كان يرضيك — سهلا يسيرا

أما المدح فلا شك أنه كان كثيرا، لأن الرجل اعتمد عليه في معاشه.
فحاول الاتصال بالخلفاء في بغداد. ولما أخفق تنازل عن طموحه وابتعد عن
العاصمة واتصل بالأمرء والأعيان. وقد مر بنا نماذج من مدحه لا تدل على كبير
غناء. وعلى الرغم من ذلك له أبيات اعتمد عليها شعراء كبار. ذهب القاضي على
ابن عبد العزيز الجرجاني^(٣) إلى أن المتنبي اعتمد في قوله :

لو فرق الكرم المـُـفرق مـُـالـُـه في الناس لم يك في الزمان شحيح
على قول منصور :

(١) النعالي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ . ياقوت : معجم الأدياء : ٧ : ١٨٨ .

(٢) ياقوت : معجم الأدياء : ٧ : ١٨٧ .

(٣) الوماطة : ٢٩١ .

لو أن ما فيه من جود تقسمه أولاد آدم عادوا كلهم سمحا
ومن أجل ما عثرت له مما يتصل بهذا الغرض ما قاله في رثاء (١) :

سألت رسوم القبر عن ثوى به لأعلم ما لا قى ، فقالت جوانبه
أتسأل عن عاش بعد وفاته بمعرفة إخوانه وأقاربه

وإذا كان هذا حظ أبي الحسن منصور من هذه الأغراض الشعرية فإن حظه
من الهجاء كان مغايرا. فمن كان يتمتع برهافة الحس التي لا بد أن يكتسبها من
كان مثل منصور في علته، ومن كان وَقَّع هذه العلة عليه كما كان وقعها على
منصور، من سوء ظن بالناس، وميل إلى الهجوم العنيف عليهم، من كان كذلك لا
بد أن يبرع في الهجاء. وقد اطلعنا على بعض أمثلة هجائه، التي يمكن أن نرد إليه
كثيرا من الشعر الذي أوردته في دراسة خلقه وأفكاره. ومن أمثله أيضا قوله
لصديقه الذي قلَّد منصبا ما فجفاه، فقال له (٢) :

يا من تولى فأبى دى لنا الجفا وتبى دى
أليس منك سمعنا من لم يمت فسيُعزل

وكان في بعض الأحيان يعتمد على السخرية، والالتفاتة الذهنية البعيدة، في
هجائه، مثل قوله (٣) :

يا من يرى المتعة في دينه حلا وإن كانت بلا مهـ
ولا يرى تسعين تطليقة تين منها ربة الخـ
من ههنا طابت مواليكـ فاجتهدوا في الحمد والشـ

(١) الوطواط : غرر الخصائص : ٢٣٥ .

(٢) الشعالي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ . منتخبات التمثيل والمحاضرة : ١٦ . الحصرى :

جمع الجواهر : ١٢١ .

(٣) الحصرى : جمع الجواهر : ١٢١ .

ولهذا كله كان معاصروه يثاقون له، زروى الحصرى (١): "الحصريون يقولون: احذر منصورا إذا رمح بالزوج".

وهناك غرض شعري آخر، أو أثر ملحمي قيل إنه صبغ شعره. فقد قال ابن الجوزى، والمصنعي (٢): "يظهر في شعره التشيع". ولكنني لم أعر على همداق هذا عند من عني بترجمة الشاعر ترجمة مطولة، ولا على صدى له فيما وصل إلى من شعره.

وخلاصة القول في أبي الحسن منصور بن إسماعيل التميمي إنه كان من شعراء المقطعات القصار، يقول البيتين والثلاثة، ولاحظ في التطويل، مثله في ذلك مثل الجماز وابن بسام (٣)، وأن القدماء فطنوا لذلك فوصفوه بالشاعر، ورأى أكثرهم في الاكتفاء بهذا الوصف غنا له فنتوه بالشاعر الجيد (٤)، ووصفوا شعره بالملاحاة (٥) والحسن. وأعجب كثيرون بمقطوعات من شعره، ولا سيما الشاعلي الذي كان أعظم من احتفى به، وأشد من احتفل بروايته في كتبه، فجعل بعضه من المطرب (٦). ووصف بعضه الأخر بأنه من "طرفه وملحه الآخذة

(١) الحصرى : جمع الجواهر : ١٢١ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم : ٦ : ١٥٢ . الصفدى : نكت الهيمان : ٢٩٧ .

(٣) نفس المرجع : ١٢٠ .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية . ابن خلكان : الوفيات : ٢ : ١٦٣ . العماد : شذرات

الذهب : ٢ : ٢٤٩ . ياقوت : معجم الأدياء : ٧ : ١٨٥ .

(٥) ابن خلكان : الوفيات : ٢ . ابن الجوزى : المنتظم : ٦ : ١٥٢ . السبكي : طبقات

الشافعية . العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ . السبكي : حسن المحاضرة :

١ : ٢٢٥ . الشيرازى : طبقات الفقهاء .

(٦) من غاب عنه المطرب : ٢٨٧ .

بمجامع القلوب" (١). ولست أجد في وصفه أصدق من قول صاحب شذرات الذهب (٢): "كان شاعراً خبيث اللسان في المهجو"، ولا أصدق وأوفى من حيث الجانب الموضوعي من قول صاحب المغرب (٣): له مقطعات كثيرة في الزهد والحكم والأمثال « ولا أصدق وأدق من حيث الجانب الفني من قول صاحب زهر الآداب (٤): حلو المقطعات، لاتزال تندر له الأبيات مما يستظرف معناه، ويستحلى مغزاه، ويبقى نثاه » .

(١) الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(٢) ٢ : ٢٤٩ . وابن هداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ .

(٣) ٢٦٢ .

(٤) ٨٢٦ .

«سيرة عمر بن عبد العزيز»

لعبد الله بن عبد الحكم

في منتصف العهد الأموي ، اندلعت نيران الحروب الأهلية بين الأمويين أصحاب السلطان في دمشق والزبيريين في مكة ، وانقسم العالم الإسلامي على بعضه ، بين الفريقين المتحاربين. وقام في مصر جماعة تناصر الزبيريين استطاعت أن تغلب على الوالي الأموي ، وتضم البلاد إلى معسكر الحجاز ، وتنصب واليا يحكم باسم عبد الله بن الزبير .

ولكن لم تنقض سنة واحدة حتى استطاع الأمويون استرجاع مصر إلى صفهم فقد أتى " مروان بن الحكم " على رأس جيش كبير ، تمكن من هزيمة الزبيريين. وأراد مروان أن يضمن ولاء مصر ، ف نصب ابنه "عبد العزيز" واليا عليها ، ومنحه السلطة المطلقة للتصرف في شئون البلاد.

وبقى عبد العزيز بن مروان واليا على مصر قريبا من إحدى وعشرين سنة ، بين عامي ٦٥ و ٨٦ هـ ، وهي مدة لم يتمتع بها وال آخر في العهد الإسلامي كله. وكان عبد العزيز شبه حاكم مستقل عن عاصمة الخلافة التي كان هو نفسه وليا لعهدها. ولذلك خلف من الآثار في مصر أكثر مما خلفه وال آخر. وكان مما خلفه أسرته وأبناؤه الذين أقاموا بمصر وتكاثروا ، وكان لهم من الأثر في تاريخها ما يظهر جليا أيام الأمويين والعباسيين بعدهم.

ولم تخص هذه الأسرة مصر وحدها بآثارها بل منحت الإسلام خليفة لا زال يفخر به إلى اليوم وسيبقى مباحيا به أبد الأبدين ، وذلك هو عمر بن العزيز ، الذي يلحقه كثيرون بالصحابة ، لأنه — إن فاته فضل صحبة الرسول صلى الله

عليه وسلم — لم تفتت أخلاق الصحابة ودينهم ، بل ينتزعه بعض المؤرخين ويجعله خامس الخلفاء الراشدين.

ذلك الرجل ٥٥٥ عنى به مؤرخو الإسلام عناية بالغة ، وأفردوا له فصولا من مؤلفاتهم أو كتبا مستقلة. وليس بغريب أن يكون من أول الكاتبتين عنه — بل لعله أولهم — مؤلف مصرى .

هذا المؤلف المصرى هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكيم بن أعين بن ليث ابن رافع ، من الأسرة التى اشتهرت فى حياة مصر الثقافية والسياسية باسم " بنى عبد الحكيم " .

ولم يشر أحد من المؤرخين إلى الوقت الذى دخل فيه بنو عبد الحكيم مصر، ولا إلى أصلهم القديم، وإنما قيل إنهم من موالى عثمان بن عفان، أو من موالى بعض موالى عثمان. ثم تبرز الأسرة بروزا واضحا فى حياة مصر فى النصف الثانى من القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث، وتحتل مرتبة رفيعة فى عالم العلم والدين والمال والسياسة.

فقد ولد مؤلف هذا الكتاب الذى نتكلم عنه فى الإسكندرية فيما بين عامى ١٥٠هـ —، ١٥٥ هـ —، ودرس الفقه والحديث على الإمام مالك ، والليث بن سعد، ومفضل بن فضالة ، وبكر بن مضر ، وغيرهم. ووصل إلى درجة كبيرة من العلم. وصفه المؤرخون فقالوا: كان إماما فقيها فاضلا، وقالوا : كان رجلا صالحا ثقة متحققا بمذهب مالك، فقيها إماما صدوقا عاقلا حلما، وكان من ذوى الأموال والرباع، له جاه عظيم ، وقدر كبير، وكان يزكى الشهود ويجرحهم ، وهو من أجلة أصحاب الإمام مالك، وأعلمهم بمختلف قوله، أفضت إليه الرئاسة بمصر بعد أشهب.

وكان صديقا للإمام الشافعي، وعليه نزل حين قدومه إلى مصر، فأحسن إليه وأكرم مثواه، وأعطاه من ماله ألف دينار، وأخذ له من ابن صامة التاجر ألف دينار، ومن رجلين آخرين من أصحابه ألف دينار، وكتب كتبه، وضم ابنه محمدا إليه. ولم يزل على إكرامه إلى أن توفي الشافعي، فدفنه في تربتهم المعروفة باسمهم.

وألّف عبد الله بن عبد الحكم عدة كتب في الفقه. وألّجب أربعة أبناء كلهم بلغ مرتبة علمية سامية، وكان له المؤلفات المرموقة. ومات بين عامي ٢١٣هـ، ٢١٥هـ، وقال ياقوت سنة ٢٢٤هـ. ودفن في قبر إلى جانب قبر الإمام الشافعي.

وقد رسم المؤلف لكتابه فحجا عاما يتناول سيرة عمر بن عبد العزيز في مراحلها المختلفة. ولكنه لم يجعل لكل جانب منها فصلا خاصا به لا يتعداه إلى غيره، فكثيرا ما نجد بعض المواد التي كان المؤلف قد تكلم عن مثيلات لها في موضع سابق بإسهاب، مذكورة في موضع آخر غير لائق بها. فالتقسيم عند المؤلف غير دقيق كل الدقة، ولكننا نستطيع القول بأنه راعى التقسيم التالي.

استهل راوي الكتاب، وهو عبد الله محمد، ابن المؤلف، ببيان المصادر التي اعتمد عليها أبوه في جمع مواد كتابه، فقال:

"حدثني أبي عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثني مالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن هبة، وبكر بن مضر، وسليمان بن يزيد الكعبي، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وموسى بن صالح، وغيرهم من أهل العلم ممن لم أسمِّ بجمع ما في هذا الكتاب من أمر عمر بن عبد العزيز، على ما سميت ورسمت وفسرت، وكل واحد منهم قد أخبرني بطائفة، فجمعت ذلك كله".

وأعقب ذلك بالقصة المشهورة الخاصة بخلط اللبن بالماء، والدالة على فضل جدته وخلقتها. قال : "فكان مما ذكر من ذلك أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — نهي في خلافته عن مذاق اللبن بالماء، فخرج ذات ليلة في حواشى المدينة، فإذا بامرأة تقول لابنة لها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟ فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهي أمير المؤمنين عن المذاق؟ فقالت: قد مذاق الناس فامذقي، فما يدرى أمير المؤمنين. فقالت: إن كان عمر لا يعلم فإنه عمر يعلم، ما كنت لأفعله وقد نهي عنه. فوفقت مقالتها من عمر. فلما أصبح دعا عاصما ابنه فقال: يا بنى، اذهب إلى موضع كذا وكذا، فاسأل عن الجارية، ووصفها له، فذهب عاصم فإذا هي جارية من بنى هلال. فقال له عمر: اذهب يا بنى فتزوجها، فما أحرأها أن تأتي بفارس يسود العرب. فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، فأنت بعمر بن عبد العزيز".

وانتقل من ذلك إلى ذكر مولد عمر، ونشأته، وتوليه المدينة، وسلوكه في أثناء ولايته قال :

ثم ولى عمر المدينة فسار بأحسن سيرة، وكان مع ذلك يعصف ريجه، ويرخى شعره، ويسبل إزاره، ويتبختر في مشيته، وهو مع ذلك لا يغمص عليه في بطن ولا فرج ولا حكم ٠٠٠ قال مزاحم : ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة، نظرت فإذا القمر في الدبران، فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر، ما أحسن استواءه في هذه الليلة ! فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران، يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكننا نخرج بالله الواحد القهار".

ثم عالج طريقة استخلاف عمر، وسلوكه في أثناء خلافته. ونستطيع أن نرى أن المؤلف حاول أن يفرد مواضع خاصة بخطبه، ورسائله، ومواعظ الناس له، وأدعيته، وآرائه، ومناظراته، ولكنه لم يلتزم الدقة الصارمة في هذا التقسيم. ولعل سبب ذلك إطلانه في هذه الموضوعات، حتى إنها تكاد تشغل الكتاب كله وميله إلى نشر مناقب عمر بينها، لأنها همّة الأول في تأليف الكتاب. قال :

" فجلس للناس بعد ثلاث، وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها، فرد المظالم، وأحيا الكتاب والسنة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل.

ولما وُلّي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه فقال: يا معشر الناس إن تقوموا نقيم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين. إن الله فرض فرائض، وسن سننا، من أخذ بما لحق، ومن تركها محق. ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، وبدلنا من العدل إلى ما لا نُمتدى إليه، ويكون عوناً لنا على الحق، ويؤدى الأمانة إلينا وإلى الناس، ولا يغترب عندنا أحداً، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا، والدخول علينا".

وختم الكتاب بوفاة عمر، ومدة خلافته، وبعض جوانب من سيرته أيضاً. قال:

" ولما مرض عمر بن عبد العزيز مرضه الذي مات منه، وقد مات أعوانه : سهل أخوه، وعبد الملك ابنه، ومزاحم مولاه، قام حَبّوا إلى شَنِّ معلق فتوصّأ منه فأحسن الوضوء. ثم أتى مسجده فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إنك قد قبضت سهلاً وعبد الملك ومزاحماً، وكانوا أعوانى على ما قد علمت فلم أزدك لك إلا حبا، ولا فيما عندك إلا رغبة، فأقبضنى إليك غير مضئع ولا مفرط. فما قام من مرضه ذلك حتى قبضه الله تعالى ".

وجملة القول في هذا الكتاب ما قاله الإمام النووي: " وقد جمع ابن عبد الحكم في مناقب عمر ابن عبد العزيز مجلدا مشتملا على جميل سيرته وحسن طريقته، وفيه من التفاس ما لا يستغنى عن معرفته والتأدب به " ، وما قاله ناشره: "فهذا كتاب جمع فيه مؤلفه عبد الله بن عبد الحكم جزءا ما جمعه الله للخليفة الراشد سيدنا عمر بن عبد العزيز من الأخلاق الفاضلة، والسياسة الحكيمة، ووصف فيه بعض ما اتصف به ذلك الإمام العادل من قوة في الحق على الباطل ، وشدة في الله على الأشرار وأهل الأهواء . . . فكان هذا الكتاب خير ما ينشر بين الجمهور".

«ولاية مصر للكندي»

في جاهلية العرب، وقبل ظهور الإسلام بقريب من مئة وخمسين عاما، عاش في البحرين على الخليج الفارسي، قبيلة يمنية الأصل، وأقامت لها ملكا، مد ظلاله على عرب تلك النواحي وعرب نجد، وعرفت ألوانا من الحضارة والترف، ظهرت آثاره في الشعر العربي، وخاصة شعر ابنها المشهور امرئ القيس، أعظم شعراء الجاهلية. تلك القبيلة هي قبيلة كندة. ولكن سرعان ما زالت دولة هذه القبيلة، فأخذت تنقلص ظلال سلطاتها وتتضاءل قوتها، حتى اضطرت أخيرا إلى الرجوع إلى وطنها القديم : اليمن .

وبزغ فجر الإسلام ، فحملت قبيلة كندة أحد مشاعله، وسارعت مع أخواتها القبائل العربية لبسط نوره على العالمين، فكان لها دور ملحوظ في فتوح العراق والشام. وأخذ قبسا من هذا المشعل أحد فروع هذه القبيلة، وسار مع عمرو بن العاص، لتخليص مصر من ظلم الرومان. ذلك الفرع هو تميم .

وإذ انتهت فتوح مصر، نزل بنو تميم حيا خاصا بهم من أحياء العاصمة الجديدة "القساط" وشاركوا في أحداث مصر مشاركة عظيمة بارزة الأثر.

وفي العاشر من ذي الحجة من عام ٢٨٣هـ، الموافق اليوم السابع عشر من يناير لعام ٨٩٧، ولد لهذه القبيلة أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب، مؤلف واحد من أقدم الكتب التي تعالج التاريخ الأول لمصر الإسلامية. ولا نعرف الكثير من تفاصيل حياة هذا المؤلف المصري، وإنما وصل إلينا أنه تلقى دروسه على عالمين أولهما مؤرخ مصري هو ابن قديد، وثانيهما محدث فارسي دخل مصر سنة

٣٠٢هـ، هو النسائي، صاحب أحد كتب الحديث الستة المشهورة صحتها. وظهر أثر أستاذه الأول في كتبه التاريخية، أما أستاذه الثاني فلم يكن ظاهر الأثر فيه، غير أنه يقال إن أبا عمر الكندي حدث في آخر عمره، وسمع عنه الحديث النبوي، ولكنه لم يبلغ في الحديث مبلغه في التاريخ.

ووصف بعض المؤرخين الكندي فقال : كان من جملة أهل العلم بالحديث والنسب، عالما بكتب الحديث ، صحيح الكتابة، نصابة، عالما بعلوم العرب . . . وكان من أعلم الناس بالبلد (يريد مصر) وأهله وأعماله وثغوره.

وآلف الكندي عدة كتب تعالج نواحي أو عهودا أو رجالا من التاريخ المصرى. آلف الخطط، وهو أول من أفرد كتابا خاصا فى هذا اللون من التأليف عن المصريين. وآلف أخبار أهل الراية الأعظم، وسيرة السرى بن الحكم، وكتاب الموالى من أهل مصر، وكتاب الخندق والتراوىح، وكتاب الأجناد الغرباء ، وكل هذه الكتب مفقود لا نعرف عنه غير اسمه وبعض مقتبسات منه. وله أيضا كتاب قضاة مصر، وكتاب أمراء مصر، وهما الكتابان الباقيان له. وقد اشتهر الكتاب الأخير حديثا باسم ولاية مصر.

وفى الثالث من شهر رمضان عام ٣٥٠ هـ، الموافق الخامس عشر من أكتوبر لسنة ٩٦١ م، توفى أبو عمر محمد بن يوسف الكندى، المؤرخ المصرى، ودفن بمقابر غافق وكندة من الفسطاط.

وليس الكندى أول مؤرخ آلف فى تاريخ مصر، بل آلف قبله الليث بن سعد المتوفى عام ١٧٥هـ، وسعيد بن كثير بن عفير المتوفى ٢٢٦هـ، وأبو زرعة عبد الأحد بن الليث، وسعيد بن أبى مريم المتوفى ٢٢٤ هـ، وأحمد بن محمد الطحاوى المتوفى ٣٢١هـ، وغيرهم. ولكن كتابه أقدم كتاب فى تاريخ مصر العام وصل إلى أيدينا.

ويعالج هذا الكتاب التاريخ المصرى منذ الفتح العربى إلى وفاة محمد بن طغح الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية عام ٣٣٥ هـ ، فقد نزل به الموت قبل إكمال كتابه والوصول به إلى سنة وفاته. ولكن بعض الباحثين القدماء قام بهذه المهمة نيابة عن المؤلف، فألحق بالكتاب أخبار الدولة الإخشيدية كلها ووصل بها إلى دخول الفاطميين مصر عام ٣٦٢ هـ، أى بعد وفاة المؤلف باثنتى عشرة سنة، فأثار ذلك العمل الشك حول موعد وفاة المؤلف، إذ ظن بعض الدارسين أن الأخبار الملحقة من قلم المؤلف نفسه، وذهب إلى أنه لم يميت عام ٣٥٠ هـ.

والهدف الأول للمؤلف تدوين أسماء الأمراء الذين تولوا مصر فى الفترة التى يعالجها، والاختصاصات التى كانت لكل منهم. فقد قسمت السلطة فى مصر فى العهد الإسلامى بين ثلاثة رجال . أما السلطة التنفيذية فكانت من نصيب أمير الصلاة، ويعينه الخليفة، وكانت الإدارة المالية خاضعة لصاحب الخراج، الذى يعينه الخليفة، وجمع بعض الأمراء بين اختصاصات السلطنتين السابقتين . وتلى هاتينوظيفتين وظيفة صاحب الشرطة ، ويعينه الوالى. وظهرت فى العصر العباسى وظيفة رابعة، هى وظيفة صاحب البريد، وكانت مهمته مراقبة الأحوال فى منطقته وإرسال التقارير الدورية عنها، وكانت مراقبته تشمل الوالى نفسه.

يقول المؤلف :

" هذا كتاب تسمية ولاية مصر ، ومن ولى الصلاة ، ومن ولى الحرب والشرطة منذ فتحت إلى زماننا هذا، ومن جمع له الصلاة والخراج ".
وواضح أن هممته موجّه نحو أمراء الصلاة، وأصحاب الشرطة ، أما أصحاب الخراج فلا يذكرهم فى كتابه إلا حين تدعو الضرورة.

وسار المؤلف فى كتابه سيرا تاريخيا، فاستهله بعمرو بن العاص فاتح مصر وأول وال عليها، ثم تناول من بعده، فمن بعده، إلى أن انتهى بآخرهم، وجعل لكل

منهم فصلا خاصا به ، معنونا باسمه ولم يطنب المؤلف كثيرا في اقتفاء أثر الجيش العربي الفاتح لمصر، ولعل سبب ذلك وجود كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم. وفتح المؤلف في تناوله لكل أمير أن يقدم اسمه ، والخليفة الذى عينه، واختصاصاته، وتاريخ تعيينه، وتاريخ قدومه مصر، إن كان بين التاريخين فترة، ومن أنابه في تلك الفترة، وأخيرا صاحب الشرطة الذى عينه، أو أصحاب الشرطة إن كانوا أكثر من واحد. يقول :

" ثم وليها عتبة بن أبي سفيان ، من قبل أخيه معاوية، على صلاحها، فقدمها في ذى القعدة سنة ثلاث وأربعين، وجعل على شرطته زكريا بن جهم . ويقول : ثم وليها سعيد بن يزيد الأزدي ، على صلاحها، فقدمها لمستهل شهر رمضان سنة الثنتين وستين فأقر عابسا على الشرط.

ودأب في ختام الكلام عن كل وال على ذكر تاريخ انتهاء ولايته والمدة التى قضاها في ولايته. يقول:

" فخرج عتبة إلى الإسكندرية مرابطا في ذى الحجة سنة أربع وأربعين، فابتنى دار الإمارة التى فى الحصن القديم. وتوفى بمنية الزجاج، واستخلف على مصر عقبة ابن عامر الجهنى. فكانت ولايته عليها سنة وشهرا " .

وكان المؤلف يما ما بين هذه البداية والخاتمة فى كل وال بالكلام عن بعض الأحداث التى وقعت فى عهده. ويعنى فى هذه الأحداث بالثورات والحروب والفتن، وبانتقالات الولاة بين العواصم المصرية: الفسطاط، أو العسكر، أو القطائع، وبين عاصمة الخلافة: المدينة ، أو دمشق أو بغداد، وبين المدن المصرية الأخرى، والإسكندرية خاصة. ويذكر فى كل مرة اسم من استخلف على العاصمة المصرية عند خروج الوالى منها.

وهذا مثال مما قاله المؤلف عن أحد الولاة الذين أوجز الكلام عنهم.

" ثم وليها منصور بن يزيد الرعيني — وهو ابن خال المهدي — من قبل المهدي، على صلاحها. فوليها يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وستين ومئة هجرية، فجعل على الشرطة هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج. ثم صرفه وولى عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني. ثم عزله وولى عسامة بن عمرو المعافري.

ثم خرج منصور إلى الإسكندرية، واستخلف عليها عسامة بن عمرو. فحدثني ابن قديد عن عبيد الله بن سعيد عن أبيه قال: لما ولى عسامة شرط ابن يزيد ابن منصور، ذكر ذلك، لابن بجير فقال: خليفة صاحب الشرط؟ فقالوا: لا ولكن على الشرط. فاستعظم ذلك. ثم صرف منصور عنها للنصف من ذى القعدة سنة الثنتين وستين ومائة هجرية، كان مقامه عليها شهرين وثلاثة أيام".

وصفوة القول في هذا الكتاب إنه أوسع كتاب بين أيدينا اليوم، يعطينا وصفا لأحداث مصر في العهد الإسلامي الأول بها، وإنه الوحيد الذي يعطينا كثيرا جدا من الأخبار المصرية التي لا يعرض لها كتاب تاريخ آخر، سواء ألف في المشرق أو المغرب. فما أكثر الأحداث التي ذكرت فيه، ولم يشر إليها أكبر موسوعة تاريخية عربية مطبوعة: كتاب الطبري، وهو — بالإضافة إلى ذلك — يورد وصفا فيه بعض الاتساع للدولة الطولونية. فهو إذن مرجع لا غنى عنه للباحث في أخبار مصر الإسلامية الأولى.

«القسم المصرى»

من المغرب لابن سعيد

من الأمور المعروفة أن على بن موسى الأندلسى قسم كتاب: «المغرب فى حلى المغرب» ، الذى ألفه بالموارثة عبد الله بن إبراهيم الحجارى، فعبد الملك بن سعيد فابنه أحمد بن عبد الملك ، فأخوه محمد، فابنه موسى بن محمد، ثم على بن موسى فى مئة وخمس عشرة سنة، قسمه إلى ثلاثة أسفار، سمي كل واحد منها فلكا. وسمى أولها «فلك الزهرة» ، وخصمه لمصر، وثانيها «فلك عطارد» ، وخصمه للمغرب أى بقية شمال أفريقيا، وخصص الثالث — الذى ضاع اسمه — للأندلس.

ومن الأمور المعروفة أنه منح كلا من مصر والأندلس ستة أجزاء من الكتاب، وأنه افتحه بمصر، واختمه بالأندلس، أى سار فيه من المشرق إلى المغرب، ولم يعط المغرب غير ثلاثة أجزاء، فأكمل الكتاب كله فى خمسة عشر جزءا.

ومن الأمور التى يأسف لها كل مشتغل بالتراث المصرى أنه لم يصل إلينا من القسم المصرى إلا ما عاجل الفسطاط والقاهرة، وفقدنا ما تناول بقيه القطر المصرى. ولذلك لم يستطع الباحثون أن يتبينوا فى وضوح خطته، وأعربوا عن أسفهم البالغ من أجل ذلك. قال الدكتور: زكى محمد حسن فى مقدمة القسم الخاص بالفسطاط: أما خطة المغرب فى القسم الخاص بمصر فلا تزال غير واضحة. والراجع عندنا أن المؤلفين لم يلتزموا فى هذا القسم الخطة التى سجلها على بن موسى بن سعيد فى مقدمة "المشرق" ٠٠٠ وإذا كان المنهج فى هذا القسم قد

خفيت أعلامه وعميت مسالكه، فإنما يرجع ذلك إلى أن الأوراق التي تضمها المخطوطة من هذا القسم لا تكفى لكشف خطة المؤلفين فيه والكتب التي قسموه إليها (ص ٢٨) .

وقد عثرت في أثناء اشتغالي بتحقيق القسم الخاص بالقاهرة من الكتاب وبعده، على أوراق متناثرة من الكتاب ، وأقوال متفرقة في بعض المراجع، تعطى معلومات جديدة وتضىء بعض الجوانب، فأردت أن أسجلها في هذه الأوراق، خيفة أن تضيع فتضيع معها ماتململه من معلومات إضافية، ورجاء أن تهدي الباحثين في المستقبل إلى معلومات أكثر.

واضح من عنوان "المغرب" وأخيه "المشرق" اللذين أصدرهما على بن موسى ومحتواهما، أنهما يقفان على قاعدة جغرافية، أى يتخذان من البيئة الجغرافية أساسا للتناول.

ولا يقف الأمر عند هذا بل يتعداه إلى التقسيم الداخلي للكتابين، فيلتزم المغرب الذي أخصه بالدراسة الأساس الجغرافي في أقسامه الكبرى والصغرى. ولما كان "المغرب" يعد كثيرا من أقسامه الداخلية كتبا مكتملة، ويعطيها عناوين خاصة، فقد أعطى القسم الخاص بمصر عنوان «الإكليل في حلى بلاد النيل»، ثم قسمه إلى ثلاثة ممالك :

١ - المملكة العليا ، وأراد بها الصعيد.

٢ - المملكة الوسطى، وأراد بها منطقة العاصمة.

٣ - المملكة الساحلية، وأراد بها الوجه البحرى.

ومن الطبيعى أنه أعطى كل واحد من هذه الممالك الثلاث عنوانا خاصا، غير أن عنواين المملكتين العليا والساحلية ضاعا، ووصل إلينا عنوان المملكة

الوسطى فقط، وهو كتاب : «النشوات الخمرية في حلى المملكة الوسطى من الممالك المصرية» .

وكما فعل في الأندلس، قسم كل واحد من هذه الممالك قسمين: يختص الأول منها بالكور (الأقاليم) التي إلى شرق النيل، والثاني بالكور التي إلى غربه. وأعطى ما كتبه عن كل واحدة من هذه الكور عنوانا، غير أننا لم يصل إلينا إلا القليل منها.

وتكشف المعلومات التي عثرنا عليها أن الكتاب سار على الخطة التالية:
اشتملت المملكة العليا على : —

- ١ - " النوبة " ، وجعل فيها "سلكا" ترجم فيه لذي النون الصوفي المعروف، ولابن أخيه ، وجعل "حلة" ترجم فيها للقمان الحكيم.
- ٢ - "الحبش" وترجم فيها للصحابي بلال بن حمامة مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكافور الشاعر.
- ٣ - "عذاب" ، وترجم فيها لولي الدين خطيبها.
- ٤ - "أسوان" وجعل عنوان كتابها «الأقحوان» ، وترجم فيها للناظر أبي الحسن بن النص وولده علي ، وللحسيب أبي المعالي بن عرام، وهبة الله ابن عرام والفقير القطرسي، والشاعر أبي الحزم المكي، وعلي بن محمد البرقي القوصي (الطالع السعيد ٣٤ ، ٤٠٦) ، وربما جاءت فيها أيضا ترجمة أحمد بن علي الرشيد الأسواني، وعلي بن محمد بن النصر الأسواني (الطالع ١٠١، ٤١٣) .
- ٥ - "قنا" : وترجم فيها للزاهد بن الصباغ .
- ٦ - "دشنا" : وترجم فيها للشاعر الدشناوي.
- ٧ - "إهميم" : وترجم فيها للشاعر ابن أبي شمر ، والنصير.

- ٨ - " دجرجا " : (جرجا الآن) : وترجم فيها الشاعر ابن المشرف.
- ٩ - " أدفو " : وجعل عنوان كتابها «معاشرة من يصفو في حلى أدفو» ، وترجم فيها للشاعر غشتمر بن عز العرب بن عبد الواحد المعروف بابن الأرجواني (الطالع ٤٦٣) .
- ١٠ - " إسنا " : وجعل عنوان كتابها «الحظ الأسنى في حلى مدينة إسنا» ، وترجم فيها للشريف محمد بن على بن الغمر الهاشمى، وأبي الغمر، والناظر ابن شيث، وعلى بن عمر الهاشمى القوصى (الطالع ٣٩٢، ٥٦٧)، وللعالِم ابن الحاجب فى حلتها .
- ١١ - " أرمنت " : وترجم فيها للشريف الأرمنى .
- ١٢ - " أسيوط " : وترجم فيها للصاحب ابن مطروح وللشاعر عبد الحميد.
- ولم أجد لقوص ذكرًا فيما عثرت عليه من أوراق. ولما كانت من أكبر المراكز الثقافية فى مصر فى ذلك العهد، فإنى أعتقد أنه — لا محالة — خصص لها كتابًا، ولعله ترجم فيه لعبد الرحمن بن عبد الوهاب القوصى، ونصر الله بن هبة الله ابن بصاقة القوصى، اللذين ذكر الأدفوى أن ابن سعيد ترجم لهما (الطالع ٢٨٨، ٦٧٨) دون أن يحدد موضع الترجمة، وإنما أرجح استدلالًا من نسبتهم، وإن لم تكن قاطعة. فقد ترجم لعلى بن عمر الهاشمى القوصى فى إسنا .
- كذلك ربما ترجم للوزير على بن يوسف جمال الدين القفطى فى قفط (الطالع ٤٣٧). واشتملت المملكة الوسطى التى سمى كتابها «النشوات الخمرية»، على ستة أسفار ينقسم كل واحد منها إلى الكور المشرقية والكور المغربية. وليس لدينا إلا اسم كتاب الكور المشرقية من آخر هذه الأسفار، وعنوانه: «لذة اللمس فى حلى كورة عين شمس». وينقسم هذا الكتاب إلى خمسة كتب على النحو التالى :

- ١ - منية النفس في حلى مدينة عين شمس.
- ٢ - الاغتباط في حلى مدينة القسطنطينية: طبع ما بقى منه الأساتذة د. زكى محمد حسن ، ود. شوقي ضيف ، ود. سيدة إسماعيل الكاشف في مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥٣ م.
- ٣ - النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة . وطبعت ما بقى منه في مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م.
- ٤ - رشف القبل في حلى قلعة الجبل: ترجم في تاجها للسلطان الكامل وابنه العادل .
- ٥ - النفحة الحاجرية في حلى الجزيرة الصاحية : ترجم في تاجها للسلطان الصالح واشتمل هذا القسم على البلاد التالية:
- أ - قليوب : وترجم فيها للكاتب على بن محمد، والشاعر حزملة الأدب.
- ب - بليس : وترجم فيها للشاعرين أحمد بن كسا وطراد السلمى.
- ج - أنصنا : وترجم فيها للشاعر يوسف بن أبي الدبس .
- واشتملت المملكة الساحلية على مايلى :
- ١ - دمياط : وترجم فيها للوزير على بن أبي المنصور، والكاتب ابن قادوس، والعامل الأعيور، والشاعرين ابن شغب، ومحمد بن منصور.
- ٢ - تيس : وترجم فيها للأديب ابن وكيع، والشاعرين هبة الله وابن مكدن.
- ٣ - سمود : وترجم فيها لهبة الله .
- ٤ - الخلة : وترجم فيها للكامل ابن النبيه وابنه، وللكاتبين الصفى الأسود والرضى بن فارس، وللأديب الشرف بن قديم، والشاعر المعيدى، والحسيب الشاعر ابن مقدم، والشاعر العماد.

- ٥ - سبك : وترجم فيها للشاعر السبكي .
 ٦ - سنا : وترجم فيها للنحوى العالم السخاوى، وللأديب ابن جبارة،
 وللشاعر موسى بن على .
 ٧ - أييار : وترجم فيها للشاعر الكمال .
 ٨ - فوة : وترجم فيها للفقير .

وتكشف هذه الصورة — على الرغم من عدم اكتمالها — عن الأساس الجغرافى الدقيق الذى تبناه مؤلفو « المغرب » . فإذا أضفنا إليها الصورة التى خرجنا بها من دراسة القسم الأندلسى من الكتاب، تبين فى جلاء أن كتاب « المغرب » بلغ الذروة فى المنهج الاقليمى لدراسة الأدباء العرب .

فقد وجدت ظواهر تدل على تنبه الفكر العربى إلى ما تخلفه البقاع المختلفة من آثار متباينة على اللغة منذ العصر الجاهلى، وعلى الشخصية والذوق منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى الأدب منذ القرن الهجرى . لأول (السابع الميلادى) . واشترك فى هذا التنبه الشعراء والنقاد . ثم انتقل هذا التنبه إلى حقل التاريخ الأدبى . فاتخذ منه محمد بن سلام الجمحى (٧٦٧ م — ٨٤٦ م) واحدا من الأسس التى قسم عليها كتابه طبقات فحول الشعراء . فجمع شعراء القرى العربية معا، ثم أفرد الطبقة السادسة من طبقات الشعراء الإسلاميين لأربعة من شعراء الحجاز .

ولكن عبد الملك بن محمد التعالى (٩٦١ م — ١٠٣٧ م) هو رائد اتخاذ الأقاليم أساسا للتاريخ الأدبى عند العرب . فقد رأى العالم الإسلامى يستظل بحكومات متباينة بل متخاصمة، والشعراء الكبار يبرزون من الأقاليم المتباعدة، وإيران تشرع فى إصدار أدب فى لغة غير عربية، فتجلت الفروق بين الأقاليم فى

بالأندلس وسموه « المغرب » وخصصوا الثاني للأقطار التي إلى شرق مصر وسموه « المشرق »^(١).

ثم قسموا كل كتاب تبعاً للأقطار التي يحتوي عليها، وقسموا كل قطر إلى أقاليمه ومراكزه وبلدانه. فوصل المنهج البيئي في التاريخ الأدبي إلى ذروته. وإذا وضعنا إلى جوار الذخيرة والمغرب كتاب : « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، الذي ألفه المقرئ (القرن السابع عشر) ، تبيننا فضل الأندلس على ذلك المنهج في جلاء. فالأول مرة — فيما أعلم — يريد مؤلف عربي أن يترجم لأحد الأدباء، فيفعل ذلك، ويقرن الترجمة بدراسة واسعة للبيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية والأدبية التي عاش فيها، وإن كان قد أسرف في هذه الدراسة كثيراً، فأفسد المنهج، غير أنه أفاد كل باحث عن وجوه النشاط في الأندلس.

وقبل أن أختتم هذا الكلام أود أن أضيف إلى المصادر التي أعلن أ.د / زكي محمد حسن أن مؤلفي « المغرب » استقوا منها، المصادر التالية التي أفاد منها في « النجوم الزاهرة » :

- ١ - بدائع البدائنه لعلي بن ظافر ٣٢٦ .
- ٢ - التعريف والاعلام للسهيلي ٣٨٨ .
- ٣ - حديث يوسف (الصديق) ٣٧٨ .
- ٤ - الدر المنظوم ٢١٨ .
- ٥ - ديوان ابن الذروري ٣٣٤ — ٣٤٥ .
- ٦ - ذيل تاريخ دمشق للبرزالي ٣٤٩ .

(١) الرجاء أن الذي ألف المشرق هو علي بن موسى وحده بإشارة (أو بمشاركة ما) من أبيه .

- ٧ - ذيل خريدة القصر للعماد الأصفهاني ٢١٢، ٢٤٠، ٢٥٩ ٠٠ إلخ.
- ٨ - ذيل قضاة مصر لابن زولاق ٣٦٦ .
- ٩ - رسائل ابن خيران ٢٤٧ .
- ١٠ - رسائل ابن الصيرفي ٢٥٢ .
- ١١ - الرسالة المصرية لأبي الصلت الأندلسي ٣٣٠ .
- ١٢ - زينة الدهر للحظري ٣٢٦ .
- ١٣ - قصص الأنبياء للكسائي ٣٧٧ ، ٣٧٩ .
- ١٤ - المعارف لابن قتيبة ٣٧٧ ، ٣٧٨ .
- ١٥ - ملح الملح لابن الصيرفي ٢٥٣ .

المراجع

- ١ - ابن سعيد « المغرب في حلى المغرب » مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م.
- ٢ - ابن سعيد « النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة » مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م.
- ٣ - جعفر بن ثعلب الأدفوي « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م.
